

فرقة كان زمان ... في حفل الربيع

بقلم: خليل بندقي

كان زمان في حفلة الربيع

بعد النجاح الكبير للفرقة في عرضها الأخير الذي قدم مساء السبت الماضي على مسرح BECKMAN AUDITORIUM في معهد التكنولوجيا بمدينة إسادينا بحضور مستمعين جاءوا خصيصاً من كافة أنحاء ولاية كاليفورنيا، لسماع فرقة التراث الموسيقي العربي، وهي تؤدي أحياناً ومغزوات لمشاهير مرموقين في عالم الغناء والطرب العربي، فمع هذه الدراسة النقدية المقارنة التي جاءت على شكل بحث موسيقي مختصر.

مسيرة ثقة نحو الظفر

في حملة امتحان الطبقات الصوتية، والتي ترافق حملات التدريب المسائي الإيسوعي لفرقة كان زمان الموسيقية يمر وائل (مايسترو الفرقة) كالفاند مستعرضاً جنوده فرداً فرداً، رافعاً من مقام صوتي، خافضاً من آخر لإحراق تناعم عوي في صورة انسجام وتطابق تعبير للصور والآداء معا، حيث تركز الجماعة مشتركة في إنطلاقها من قاعدة جاذبة وهي وحدة المشاعر والأحاسيس التي تجيء دافئة دفاقة في إبعائها الصافي على هيئة موجات من ألحان (قليصوتية) متتابعة رقيقة وعميقة معا، بل تظهر شكلاً عند التلطف بها لا أكثر، فتعد نوعاً من الطرب، لأنها مؤطرة بالكامل بالجدية والإلتزام، لتثبت حقيقة ما إفتقد ولستين عبر أداء المدعوين بمقتضى هنا، إنتقالاً إلى متابعة باقي درجات الإيقاع بحسب السلم الموسيقي الموضوع (النوتة)، مع ما لدور الدقوف والطبل والرق مع الدبكة من تأثير لذب الحماسة مع الفرع في نفوس المستمعين قبل أذانهم بمشاركة بقية الآلات طبعاً، بل بالرجوع إلى تركيبة التخت الموسيقي الشرقي بشكل خاص.

واقع المغنين غير المحترمين

إن أكثر المتقين ومع الأسف الذين نصبوا أنفسهم في خاتمة الإحتراف ففي غفلة من الجمهور التائه هنا على الأغلب، حيث خانتهم الشهرة التي ركضوا إليها فكانوا أول المنحدرين بإستثناء قلة، ولربما أسعف الحظ بعضهم، والسبب بسيط جداً وهو غياب النضوج المعرفي للألحان والمقامات والسكنات والفواصل والتسريعات وخاتمات ومطالع الموالاة الخ... بل ولعدم تمكن الغالبية من حفظ كلمات الأغاني مع أن تسعا وتسعين بالمائة منها مكررة أو مقلدة، حيث لا إضافات تساعد على تطوير نغمي ولا انعطافات جانبية تزيد في هضم الإذن لما تسمع، والحشوات الزمانية إنما هي ليست أكثر من مركبات غير جمالية تعمل على تشويه السماع عند إختراقها للأذان الموسيقية الممتصة للحن المتتابع، والتي من هذه العناصر الدخيلة: التصنع الخادع والتأوه مع التشنج إلى المد والتطويل أو الإقسطاع القسري المجزوء...! فأي إجاز وأي تحديث هذا التخریش وما يصطف إلى جانب هذه التسميات قسراً؟ من باب المراوغة للتتويه، حيث غاب التركيز وبهتت الدلالة، ففي كل ما يسمى بجولات الطرب الإصطناعي يتحول الجمهور المستمع بشكل آلي إلى ضحية بعد أن تستوطن الحيرة والشكوك آراءه وأفكاره الشاططة السابحة. والناتجة المستحصلة من هذه المعادلة المغلوطة هو القبول الإنكساري وفي أغلب الأحيان، إرضاء للمغني وللمؤدي معا من باب المجاملة الرخيصة، حفظاً لماء وجه الصداقات لا أكثر.

واقع الفرق المملدة

فمرة بوجه المغني اللوم إلى العازفين على الفوضى والإرتباك ولإنعدام التواصل اللحني بينهم ومرة يصب اللوم دفعة واحدة على (الريكلاج) غير المنتظم (للساوند سيستم) فلان الجهاز الحديث منه قد حضر الحرين العالميتين على قدمه، ومع تكاثر المواهب الغنائية هذه الأيام فالسقوط أصبح سهلاً عليها لتخليها عن العلمية والمنهجية الموسيقية والخاصية التراثية المميزة (بكسر الزين) للغناء العربي. أما قلة التدريب والإستعدادات فلا أحد يظن إليها، مع ما لدور الفوضى في توجيه العرض الإرتجالي نحو فشل مؤكد. وحقيقة الحقائق أن معادلة التطريب تفترض أول ما تفترض لإحراقها: سلامة الأداء وغياب المحسنات النغمية الإصطناعية، بل بالرجوع إلى ما ذكرته في المقدمة.

ألحان متميزة وأغان مختارة ومتطوعون هواة

أعود الآن إلى دنيا الأغاني والألحان من خلال هذه الفرقة الناشئة بالخاص، ففي موشح أنت المدلل يا قمر من (مقام الصبا)، وفي وصالك أنا متيم يا قمر، وكيف حالك... ليل يا ليل.. يا عين.. ليل.. ليل.. يا ليل.

هنا وببساطة يلحم المستمع التوافق لهذه النماذج المحببة من الغناء التقليدي أن هناك محاورة غرامية ولا أحلى بين عاشق وعاشقة والشخصية البديلة المنتقاة بإذن الشاعر العربي هو القمر الساهر، أو هي بالمعنى الإنساني بعد ترجمة الكلمة الرمز التي تتحول إلى حسناء مغناج لعب، عجز سلطان النوم عن قهر ناعسها أملاً بروية الحبيب الغائب، والمتحاورون بالطبع هم أعضاء الفرقة شباباً وشابات من كل الأعمار والمستويات، متطوعون هواة، كرسوا ذواتهم مضحين للهدف الكبير، وهو النجاح لأنه رديف الجدية والإلتزام. مع تخليهم عن التراجع الشاذة والتي أدخلت عنوة في ما يسمى بدائرة العصرية، حيث لا نهضة سماعية ترتجى، بإستثناء سرعة التوقيت الزمني من باب الإختصار، والذي عد في قوائم أغاني اليوم على أنه إبتكار يماشي

العصر. ولكنه لن يعتبر إعجازاً بأي حال من الأحوال طالما هو سرقة غريبة واضحة.

موشح برسم الإستماع

بالعودة إلى ذلك الموشح بالذات (القمر المدلل)، نرى أن رفته ومصدر عزوبته ليست مرجعة أصلاً إلى الكلمات الشعرية الفتاة الإختيار أو إلى البناء الشعوري الأخاذ المضامين وحده، بل بفضل التوزيع اللحني المجل (بضم الميم) للموسيقى، لا المحسن (بشد السين) والذي بفضل هذا الدمج المزدوج، وأنا أسميه التزواج المبتكر (بفتح التاء)، تتضح تعابير الكلمات مقترنة بعفوية مع النغم المصاحب إلى أن ينسكباً بمجموعهما في قالب سماعي جميل يطرب، حيث تعلق الروعة بدورها عن كل هفوة مهما كبرت أو صغرت والتي تصدر أحياناً مع تبدل اللحن ومع أكثر الفرق العالمية إحترافاً.

إن الحب المتبادل بين هذه الفرقة الناشئة والجمهور المستمع الذواق هو الرأسمال المشترك ما بين الطرفين، بدليل ما سبق من حفلات وعروض وما تبعها من ثناءات وتقدير من مستمعين عرب وأميركان معا.

آراء في مقترحات

وإذا ما عملت الفرقة على تقليص أعداد الآلات الوترية وبخاصة الكمان، فمن الجانب الآخر عليها زيادة رنات العيذان وتسبيقها على الأولى، لأن الثانية تخدم التخت الشرقي، أما الأولى ففيها الروح

أقام الكهزاي



بل حتى من سان باولو في البرازيل.

وسؤالي الأخير هو إلى متى سيبقى المجال مفتوحاً للسيد القمر راعياً لوحده أماسي الطرب الأصيل، معلقاً على أرجوحة الكون في فضائه الواسع المصبوغ بعمته الليل تاركاً جماهير الكوكب الأرضي منشغلة بهوم الساعة، مهرولة حول حلقات هز البطون، حيث التذاكر تجنح إلى أعلى سعر بلا رقيب.

على المشجعين الداعمين أن يسرعوا اليوم لإلتهم تلك الغنائم ففيها غذاء للروح وللنفوس المتعبة وراحة وفرح للقلوب. عليهم أن ينخرطوا ومعهم جيل شباب الإغتراب في دائرة الثقيف والتوعية الموسيقية. وإلا سنهشهم الحشرات وسيسقطوا صرعى سماسرة المضاربات الفنية الركيكة هذه الأيام.

فإلى الفرقة في عروضها القادمة.. مع ما فيها من إثارة وتشويق ودحر كامل للروتين. بالمحافظة أولاً وأخيراً على الصيغة التقليدية (الكلاسية) التراثية التي هي خطها العام، مع سلام خاص إلى كل من لم يتغيب يوماً واحداً عن التمرين الإيسوعي فلان المساواة هي القاسم المشترك بين كل الكفاءات والمواهب المشاركة بدون إستثناء. أما الفرقة بمجموع أفرادها فتوجه شكرها الكبير على شكل تحية جماعية إلى السيدة الأميركية عازفة القانون لكثرة ما قدمت وما تقدم من وقت وتضحية وتصحيح وطبع نوتات ومتابعة وسهر وإرشاد بدون كلل أو ملل.

مقسماً سلامي بعدل من جهتي على: الفريد وغازي وفايزة وسمير ونصرت وفيليت وموريس وعبدو وماري وحنان وستيف وإياد وسلام وتاتيانا والياس وسلفياتو وميشيل وأميمة والبقية الذين لم أنس اندفاعهم وحماسهم، بل نسيت أسماءهم لكثرة ما تخونني الذاكرة.

والى الملثقى الكبير في برودواي يا وائل...

خليل بندقي

كاتب وناقد وفنان تشكيلي